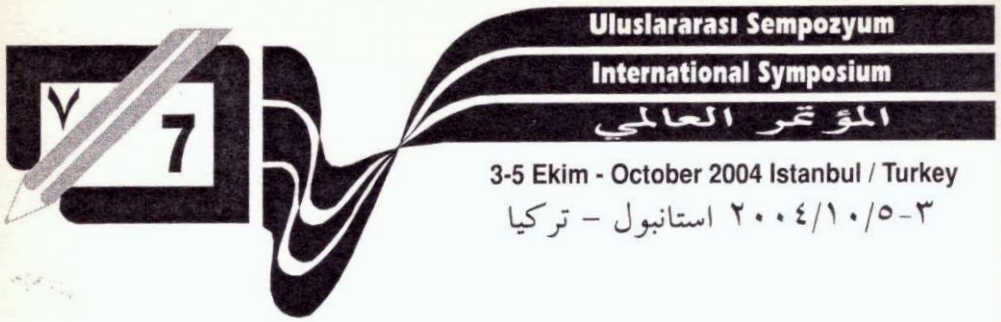

المؤتـــمر العالمي الســـابع
لبديع الزمان سعيد النورسي

ممارسة حياة ايمانية فاعلة

في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات
من خلال رسائل النور

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م
Ekim 2004
الترقيم الدولى
ISBN: 975-269-043-2
شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع

تأملات في بعض أدوات التزكية الروحية في رسائل النور
قراءة في خصوصيات المنهج التربوي

د. محمد جكيب
جامعة شعيب الدكالي/ الجديدة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

أما قبل:

ما مستقبل الإنسان؟

وما مصيره في ضوء ما نشاهده من تقدم علمي ومن رفاهية مادية لا حد لها؟

ما السبيل إلى الحفاظ على التوازن الروحي في زمن أصبحت فيه المادة هي القـــوة المسيطرة؟

وما السبيل إلى زرع الانسجام بين احتياجات النفس الروحية والمعنوية، وبين العالم المادي بتناقضاته المتنوعة والمختلفة؟

وإذا كان حق السؤال مشروعا فإن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو ما السبيل إلى علاج هذا الواقع المر؟

لقد صارت هذه الأسئلة وغيرها في عمق ومقدمة ما يشغل اهتمام الباحثين والدارسين خاصة في ضوء ما يعرفه العالم من مظاهر توحي بأن مستقبل الإنسانية غير واضح ولا جلي، فقد بدا العالم على شفى هاوية، أو هو مقبل على السقوط في واد سحيق لا قرار له حتى ليخيل للمرء أنه في وسط دوامة تجذبه إلى الأسفل مادا يديه باحثا عن شيء يتعلق به لكن دون جدوى.

فالأزمات الأخلاقية، وانسلاخ المرء عن هويته الإنسانية، قبل هويته الدينية والوطنية، وتفكك رؤيته للكون، وانهيار إحساس بجدوى وجوده فيه إلى درجة العبث، وانحصار إحساسه بوظيفته في هذا العالم والكون، وتفاقم علاقته بخالق الوجود، مما أدى إلى مسخ معنى العبودية لله وتحولها إلى مجرد حركات طقوسية خالية من كل فعالية روحية، ومن كل مغزى حقيقي يربط العبد بخالق الكون، وانكماش إحساسه بالروابط الأسرية، واستغراقه في ملذات الحياة الفانية مما نتج عنه تفسخ في القيم، واستهتار بالرؤية الشمولية التي لا تفصل الإنسان عن هذا الوجود، وعن الخالق.

كل ذلك إنما هو نتيجة فعلية لشدة ارتباط الإنسان بالمادة وانبهاره بما حققه التطور التكنولوجي من تطور مهول وتقدم لا حدود لهما، وتهميشه للتغذية الروحية في حياته، ودورها في الارتقاء به، وقد كان من نتائج ذلك تزايد مهول في عدد المنتحرين عبر العالم، وتفاقم الجريمة، وتوسع دائرة الانحلال الخلقي، والقائمة طويلة.

ومما لا شك فيه أن النورسي بما متعه الله به من قدرة على استشراف مشكلات العالم الحضارية، ومعالجتها بعين ثاقبة، ومنهج متطور يتلاءم مع جميع مستجدات العصر تستمد قوتها من القرآن ومنهجه، لقادر من خلال الرسائل على تقديم البلسم والعلاج لهذه المشاكل كلها، بل إن الرسائل بصفة شمولية علاج عملي لما يتخبط فيه العالم، وكأن النورسي يقول بلسان حال الرسائل: إن هذه الرسائل وصفة علاجية لكل أسقامك النفسية والحياتية فأحسن التجواب معها والتفاعل، وليس ذلك بالأمر المستغرب على منهج تربوي يوازن بين الروحي والمادي، مسترشدا بالمنهج القرآني، ومنطلقا منه وسائرا على طريقته.

أما بعد:

سيحاول هذا البحث الكشف عن بعض الأدوات التي هي جزء من منهج النورسي في الرقي بالإنسانية وتخليصها من براثن السقوط والانهيار، ـــ وهي كثيرة ـــ وذلك لأن الإنسانية في حاجة اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، إلى دفعات روحية، وإلى وصفات

علاجية قوامها الأخلاق، تربطها بالغيب وبخالق الكون، في أفق إصلاح الواقع الحضاري بمختلف تجلياته الاجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية.

لقد سطر النورسي في الرسائل منهجا تربويا مؤهلا لتخليص العالم من أمراضه، بما يحتويه من آليات وأدوات مقتبسة من القرآن، من الممكن أن نطلق عليها " ***الأدوات القرآنية للتزكية الإنسانية***" .

ومن بين هذه الأدوات نجد المعيار الجمالي في التعامل مع الكون، باعتباره قيمة محورية يجب أن ترتكز عليها نظرة الإنسان إلى الكون والحياة والواقع، بحيث يصير استيعاب فكرة الجمال بمفهومه الحقيقي أو بمفهومه القرآني، وسيلة لتقييم وتقويم العالم، ففكرة الجمال كما بلورها الأستاذ، أداة قادرة على تخليص العالم من الويلات التي يتخبط فيها، وبهذا يصير هذا المعيار موجها للناس لكافة بكل توجهاتهم ومشاربهم ودياناتهم ، وليس فقط لطلبة ومريدي الشيخ بديع الزمان النورسي.

ومن الوصفات الأخرى التي تحمل في عمقها دواء داء العصر، أداة أسماء الله الحسنى وتجليها في الكون، وهو معيار نظن أن التفاعل معه على الصورة التي صاغها النورسي بها وطبقها، كفيلة بأن تغير نظرة الإنسان لكل ما يحيط به فيصير إقباله عليها من داخلها، يخالف كلية الإقبال عليها خارج إطار تجلي أسماء الله الحسنى.

ومن الأدوات الأخرى التي تبدو أنها صاحبة المركز القوي في منهج النورسي التربوي، والتي يركز عليها كثيرا، أداة عقيدة الآخرة بما تستتبعه من حشر وحساب، وهي رحلة يعطيها النورسي، أبعادا إيجابية من خلال ما يسبغ عليها من رونق، وما يضفي عليها من روائع الحلل القشيبة، ورائق المعاني اللطيفة.

ومن الأدوات الأخرى كذلك التي تشكل سبيلا من سبل التزكية الروحية، أداة أو سبيل الحكي أو الحكاية التي لم يكن توظيفها في المنهج عبثا، بل عنصرا ضروريا لا يكتمل المنهج التربوي عند النورسي إلا به، وهو المنهج نفسه الذي طبقه النورسي مع نفسه ومع طلبته، وصار عليه طلبته من بعده خلاله مسترشدين بجميع تفاصيل حياته وتوجيهاته.

فكيف تشتغل هذه المكونات وما طبيعة العناصر التي توسل بها النورسي من أجل جعلها فعالة ؟

المبحث الأول: مكونات معيار الجمال ومقاييسه في منهج النورسي التربوي.

ليس مفهوم الجمال في تصور النورسي مجرد ترف فكري أو ترف تأملي، بل هو أساس يقوم عليه التصور الرؤوي بكامله، ومن القصور اعتباره مجرد رغبة في نقل رؤية تأملية للجمال من منظور خاص وشخصي فهذا الأمر غير حاضر أصلا في تصور النورسي وذلك لسبب بسيط وهو أن الرسائل تنطلق من القرآن، والقرآن كما هو معروف للجميع منزه عن التكرار وعن الترف الزائد، ومنزه عن العبث فكل ما في هذا الكتاب له غاية ومعنى ومرمى ينبغي إدراكه وفهمه واستيعاب أبعاده، ومبحث الجمال عند النورسي له غاية وهدف ومرمى ومن هنا لا يمكن فصله عن الأدوات والوسائل والآليات التوجيهية الأخرى في منهج النورسي في بناء الإنسان، إن الرسائل في عبارة قصيرة مشروع لبناء الإنسان من منظور قرآني، وعلى هذا الأساس فمبحث الجمال ومضامينه عند النورسي قابلة لأن تكون أداة من الأدوات الكثير، التي يمكن توظيفها في تخليص العالم من هوة السقوط والضياع.

فالنورسي أو الأستاذ كما كان يسميه طلبته ومريدوه قد قدم الجواب والعلاج الناجع لهذا التيهان، والاتصال برسائله بصدق وإخلاص لابد أن يحمل الأمل إلى الإنسانية كلها. يقول د. فاروق حمادة: "وحري بأهل الدعوة والفكر وحملة القرآن والرسالة، ودعاة السنة، ومحاربي الجهالة والضلالة أن يقفوا أمام رسائله طويلا، ويرجعوا البصر في أفكاره المشعة ونظراته للكون والحياة والإنسان تكرارا ومرارا، ليمتحوا منها في عالم لم يتغير كثيرا عما عاشه هذا الإمام، وعالج قضاياه بكل حكمة واتزان واهتمام، بل إن كثيرا مما عالجه قد تعمق جرحه واستفحل خطره، وما أحوج البشرية إلى البلسم القرآني، والدواء الرباني لتضميد جراح الروح والنفس والجسد والمجتمع، فقد كان هذا الإمام يقدم المرهم والبلاسم من صيدلية القرآن جاهزة للاستعمال، سهلة قريبة المنال"[1]

وليس هذا بالأمر الغريب على رجل قوي اتصاله بالقرآن وتشربت روحه وجميـــع جوارحه معانيه، وأعادت ترجمتها إلى وصفات علاجية ناجعة تملك القدرة على التسرب بلطف وهدوء إلى أعماق النفس الإنسانية، وترجمتها كذلك إلى صور فنية مؤثرة، وإلى كلمات تفيض حيوية حتى كأنها تنطق.

لقد كان النورسي رجلا مؤتا له لا يرى إلا بمنظار القرآن، ولا يتأمل إلا من خلال الفيض الجمالي الذي تجلت به أسماء الله الحسنى في الوجود

وبعبارة أخرى إن النورسي لم يكن ينظر وهو ينقل العالم بكل مكوناته إلا الوجه الظاهر للجمال الالهي، هذا الجمال الذي اكتسب القدرة على فهم خفاياه الدقيقة بإخلاصه في الاتصال بقرآن.

اعتبر النورسي الوجود كتابا جميلا كتب بكلمات جميلة وكل حرف من حروف هذا الكتاب التي لا تعد ولا تحصى دليل من الأدلة الظاهرة على الجمال الإلهي بما تحتويه هي ذاتها من جمال مسبح في وقت وحين، وبما حباها صاحب الجمال من قدر جمالي يوافق حكمة إيجادها. فالمتأمل في الرسائل لابد وأن يلاحظ بأن مسحة جمالية ظاهرة للعيان تشدك إليها شدا، فإلى جانب الأسلوب الأدبي الأخاذ والمعجم الذي لا يتوقف على اقتباس واستحضار ألفاظ تنتمي إلى حقل الجمال، فإلى جانب ذلك كله وغيره نلاحظ بأن النورسي في كل فقرة من الرسائل، ومنذ الاتصال الأول معها يؤسس علاقة قوية ووشائج عميقة مع الكائنات[2] إنه حوار عميق ودقيق يفتحه النورسي مع الوجود ليستخرج أسرار الحكمة الإلهية المتضمنة فيما يطلق عليه النورسي القرآن المنظور يقول: " انه محال أن يكون كتاب بلا كاتب، ولا سيما كتاب كهذا الذي تتضمن كل كلمة من كلماته كتاباً خُطّ بقلم دقيق، والذي تحت كل حرف من حروفه قصيدة دُبجت بقلم رفيع. وكذلك من أمحل المحال أن يكون هذا الكون من غير مبدع، حيث إن هذا الكون كتاب على نحو عظيم تتضمن كل صحيفة فيه كتباً كثيرة، لا بل كل كلمة منها كتاباً، وكل حرف منها قصيدةً.. فوجه الأرض صحيفة، وما اكثر ما فيها من كتب! والشجرة كلمة واحدة، وما اكثر ما فيها من صحائف! والثمرة حرف، والبذرة نقطة.. وفي هذه النقطة فهرس الشجرة الباسقة وخطة عملها. فكتاب كهذا ما يكون إلا من

إبداع قلم صاحب قدرة متصف بالجمال والجلال والحكمة المطلقة. أي أن مجرد النظر إلى العالَم ومشاهدته يستلزم هذا الإيمان، إلا مَنْ أسكَرته الضلالة!.

ومثلما لا يمكن أن تكون دار بلا بنّاء، لاسيما هذه الدار التي زيّنت بأبدع زينة، ونقشت بأروع نقوش وأعجبها وشيّدت بصنعة خارقة، حتى أن كل حجر من أحجارها يتجسم فيه فن ما في البناء كله. فلا يقبل عاقل أن تكون دار مثل هذه الدار بلا بنّاء ماهر، وبخاصة أنه يشيِّد في هذا الديوان - في كل ساعة - مساكنَ حقيقية في غاية الانتظام والتناسق، ويغيّرها بانتظام وسهولة كاملين - كسهولة تبديل الملابس - بل انه ينشئ في كل ركن غرفاً صغيرة عدة في كل مشهد حقيقي. " [3]

يدل هذا الكلام دلالة واضحة على أن الوجود في تجلياته لوحة جمالية رائعة تدل على الخالق وتدل على المبدع الذي هو الله تبارك وتعالى، وإيرادها بهذه الحرارة المتدفقة وبهذه الدقة المتناهية، التي لخصت الوجود في فقرتين ليس الغرض منه هو إبراز القدرة على تقرير صورة فنية، تبرز فيها المحسنات البلاغية، والمعجم الجمالي بشكل قوي، كما قد يتصور البعض، ولكن الغرض الحقيقي الذي يرمي إليه النورسي، هو تعليم الإنسانية كيفية تذوق الوجود، وكيفية الانغماس في كل دقائقه العظيمة ذلك لأن كل مكونات هذا الوجود مهما ضعف حجمها هي دقيقة عظيمة من دقائق الوجود، لأنها تخفي سبيل من سبل التفكر في كل ما خلق الله ، بروح تعبدية.

لقد أنفذت روح النورسي الصافية، كروح أي عارف بالله، حقيقة الجمال إلى جميع أدخالها حتى لم يبق جانب فيها غير نابض بروح الجمال، وبعبارة أخرى، لقد تمكن النورسي من إدراك حقيقة الجمال في الوجود وهذا الإدراك جعله ينغمس كلية في المظاهر الظاهرة والخفية لتجلياته، فنقلها نقلا صادقا ودقيقا، وكأنه يتناول مداد كلماته من ذوات تجلي الجمال الإلهي في الكون. ولم تكن غايته في أي وقت من الأوقات في جعل الجمال مجرد لذة روحية لا غير بل لقد سكنه هم إشراك الإنسانية عموما معه في تذوق هذه اللذة العظيمة، ولسان حاله يقول أيها الناس إن السبيل إلى الخلاص من أكداركم هو أن تتعلموا كيفية النظر إلى الوجود بجميع تجلياته ومظاهره نظرة جمالية.

ومما لاشك فيه أن النورسي قد استوعب هذه الحقائق وكتب عن الجمال من خلال الجمال وبالجمال نفسه، وهذا هو السر في عدم فقدان الرسائل لروحها وعمقها بالرغم من ترجمتها إلى العديد من اللغات، فالقارئ للرسائل يلمس بأن سرا خفيا يتحكم فيها، وهو لا يعدو أن يكون تجلي أسماء الله الحسنى، التي تشربتها روح النورسي، بكل ما تخفيه من أبعاد روحية، على أن هذه الأسماء في حد ذاتها هي جزء لا يتجزأ من فيض الجمال الإلهي المطلق.

وليس هذا فقط فدقائق الأشياء والبسيط منها، والتي قد لا نعبأ بوجودها، تخفي حالة خاصة من الجمال كما يدل على ذلك مضمون كلام النورسي، وذلك لأن هذه الأشياء من صنع الخالق المتصف بجميع الأوصاف الكمالية، فليس غريبا أن تقتبس حظها من الجمال، يقول النورسي:"الصانع كما انه واجب الوجود وواحد؛ كذلك انه متصف بجميع الأوصاف الكمالية؛ لأن ما في المصنوع من فيض الكمال إنما هو مقتبس من ظل تجلي كمال صانعه. فبالضرورة يوجد في الصانع جل جلاله من الجمال والكمال والحسن ما هو أعلى بدرجات غير متناهية من عموم ما في عموم الكائنات من الحسن والكمال والجمال؛ اذ الإحسان عموم الكائنات من الحسن. والكمال فرعٌ لثروة المحسِن ودليل عليها، والإيجاد لوجود الموجِد، والإيجاب لوجوب الموجب، والتحسين لحسن المحسّن المناسب له. "[4]

ولكن السؤال هو هل يمكن أن يكون الجمال وسيلة من وسائل مداواة مشاكل العالم النفسية والروحية؟

والجواب هو بالإيجاب لأن النورسي يؤسس رؤية جمالية تقوم على جعل الجمال قيمة مركزية في حياة الفرد والجماعة على حد سواء، فقد كان يرى أن الجمال هو القيمة التي تنتهي إليها وعندها كل المعاني الكونية فإذا قارنا بين نظرتين إحداهما جمالية والأخرى عامة وجافة وخالية من أي معنى فلا شك بأن النظرة ذات البعد الجمالي تستطيع أن تتفاعل أكثر مع المعطيات الواقعية والوجودية ومع الكون وهو سنن الله في الكون، ومن هنا فإن هذا التفاعل لابد وأن ينتج غنى ميزته الأساسية هي الجمال ومن هنا كذلك فإن النظرة التشاؤمية إلى الواقع لن تنج سوى العطاء المبتور والفاشل وهو عطاء مآله النسيان

والتهميش والإهمال في حين أن العطاء الذي ينطلق من رؤية جمالية ينتج عطاء إيجابيا، والمتشبع بالجمالي في أسمى معانيه لا يمكن أن يفكر في الانتحار، أو مغادرة الحياة متى شاء ذلك على سبيل التمثيل لمجرد أن همومه وأحزانه أكبر من أن تستوعبها نفسه، وأكبر من أن تصاحب وجوده في الحياة فالأفضل هو مغادرة الحياة، وهذا هو مضمون الحكاية الثامنة التي يسردها النورسي في الكلمة الثامنة حيث يعقد النورسي مقارنة بين شقيقين يذهبان معا إلى سياحة طويلة، إلى أن وصلا إلى مفترق طريقين، فسألا رجلا كان موجودا هناك عن أي الطريقين أفضل، فأخبرهما بأن طريق اليمين يسود فيه القانون والنظام، ويتحتم الخضوع لهما، من أجل الشعور بالأمان والسعادة، وأما طريق الشمال فعلى الرغم مما يتوفر عليه من حرية وتحرر، إلا أن في ثناياه يوجد الشقاء والهلاك، وتستمر الحكاية مترصدة خطوات الأخوين اللذان يواجهان من المصاعب والمحن الشيء الكثير، فالشقيق الثاني الذي عبر طريق الشمال ما أن عبر "الوديان العميقة والمرتفعات العالية الوعرة حتى دخل وسط مفازة خالية وصحراء موحشة؛ فسمع صوتاً مخيفاً، ورأى أن أسداً ضخماً غضوباً قد انطلق من الأحراش نحوه؛ ففر منه فراراً وهو يرتعد خوفاً وهلعاً، فصادف بئراً معطلة على عمق ستين ذراعاً فألقى نفسه فيها طلباً للنجاة، وفي أثناء السقوط لقَيت يداه شجرةً فتشبث بها. وكان لهذه الشجرة جذران نبتا على جدار البئر وقد سلّط عليهما فأران، أبيض وأسود. وهما يقضمان ذينك الجذرين بأسنانهما الحادة. فنظر إلى الأعلى فرأى الأسد واقفاً كالحارس على فوهة البئر، ونظر إلى الأسفل فرأى ثعباناً كبيراً جداً قد رفع رأسه يريد الاقتراب منه وهو على مسافة ثلاثين ذراعاً، وله فم واسع سعة البئر نفسها. ورأى ثمة حشرات مؤذية لاسعة تحيط به. نظر إلى أعلى الشجرة فرأى أنها شجرة تين، إلا أنها تثمر بصورة خارقة أنواعاً مختلفة وكثيرة من فواكه الأشجار ابتداء من الجوز وانتهاء إلى الرمان "[5] وأما الشقيق الآخر فقد مضى في طريقه دون عناء "ذلك لأنه لا يفكر إلا في الأشياء الجميلة – لما له من جمال الخُلق – ولا يأخذ بعنان الخيال إلا بما هو جميل ولطيف، لذا كان يستأنس بنفسه ولا يلاقي الصعوبة والمشقة كأخيه. ذلك لأنه يعرف النظام، ويعمل بمقتضى الولاء والاتباع. فيرى الأمور تسهل له، ويمضي حراً منطلقاً مستظلاً بالأمان والاستقرار. وهكذا مضى حتى وجد بستاناً فيه أزهار جميلة وفواكه لطيفة مع ثمة جثث حيوانات وأشياء منتنة مبعثرة هنا وهناك بسبب إهمال النظافة. كان أخوه الشقي قد

وأشياء منتنة مبعثرة هنا وهناك بسبب إهمال النظافة. كان أخوه الشقي قد دخل ـــ من قبل ـــ في مثل هذا البستان أيضاً غير أنه انشغل بمشاهدة الجيف الميتة وانعام النظر فيها مما أشعره بالغثيان والدوار. فغادره دون أن يأخذ قسطاً من الراحة لمواصلة السير. أما هذا الأخ فعملاً بقاعدة "انظر إلى الأحسن من كل شيء" فقد أهمل الجيف و لم يلتفت إليها مطلقاً، بل استفاد مما في البستان من الأشياء والفواكه. وبعدما استراح فيه الراحة التامة مضى إلى ســـبيله."[6]

فهذه القصة تشير إلى قيمة رؤية الكون والوجود بعين الجمال ومدى تأثير ذلك في توجيه النفسية الإنسانية، فالأخ الطيب الذي وطن نفسه على رؤية العالم الذي يحيط به بعين راضية مفعمة بالجمال، وبعين تمكنه من التغلب على كل العوائق والموانع، قد تمكن بالفعل من التغلب على كل مخاوفه وأبعد الهواجس التي خامرته متمما سيره بقلب واثق في الله تعالى ونفس مطمئنة. فالحسنة تجلب الحسنة كما يقول النورسي.[7] وهذا الأخ الطيب قد أدرك الجانب العملي للجمال، وأدرك حقيقته الفعلية. والحقيقة هي الأخرى ذات لون واحد هو لون الجمال، لأن الحقيقة لا يختلف مذاقها وإن اختلفت أبعادها لأنها حقيقة وهي تدرك حقيقة بصيغة واحدة وإن اختلفت وسائل البحث عنها والسبل. يقول النورسي: "والحقيقة بذاتها جميلة، ومع إدراك جمال الحقيقة فانه يحترم كمال صاحب الحقيقة ويوقّره فيستحق رحمته" [8]

وما أحوج الإنسانية اليوم إلى أن تتلقى جرعات من منهج بديع الزمان النورسي في تعويد الذات على رؤية الجمال، وتعويدها كذلك على تذويب همومها ومشكلاتها النفسية بالانغماس في الجمال وتذوقه في كل ما يحيط بهذه الذات من أفراح وهموم وأشياء ومخلوقات وغيرها. يقول النورسي:" فهناك من الحوادث التي يبدو في ظاهر أمرها قبيحاً مضطرباً ومشوشاً، إلا أنَّ تحت ذلك الستار الظاهري أنواعاً من جمال رائق، وأنماطاً من نظم دقيقة"[9]

والفرق شاسع عندما يحول المؤمن هما من هموم ذاته، ومصيبة من مصائبها إلى عبادة يرددها من خلال عبارة "الحمد لله على كل حال". فهذه العبارة تحتوي من الدعم النفسي ما يعجز عنه أقوى الأطباء النفسانيين، وتعجز عنه أحدث النظريات في علم

النفس، وأدق الوصفات العلاجية، فمنهج النورسي واضح المعالم لا يحتاج سوى إلى إرادة قوية صلبة، وإلى لحظات تأمل صادقة تبدأ بإنعام النظر في كل ما يمكن أن يكون دليلا على جمال الخالق فالموجودات " الشبيهة بالمرايا مع أنها تتعاقب بالزوال والفناء فان وجود تجليات الجمال نفسه والحسن عينه في وجهها، وفي التي تعقبها، يدل على أن ذلك الجمال ليس ملكاً لها، بل هو آيات حسنٍ منــزّه، وامارات جمـــــالٍ مقدّ".[10] فالموجودات جميعها بما فيها الإنسان نفسه تختزن من الحسن والجمال ما هو حري بهذا الإنسان أن يمضي العمر كله هائما فيها ومتلذذا لذة تعبد في هذا الجمال، الذي هو قبس من الجمال الإلهي المطلق، الذي يستحيل أن يتبدل جماله أو ينقلب قبحا، فهو دائم وباق، لأنه هو الحقيقة المطلقة، ومن المستحيل أن تنقلب الحقيقة "لأن انقلاب الحقائق محال بالاتفاق. واشد محالاته هو انقلاب الضد إلى ضده. وضمن عدم إمكان انقلاب الحقائق إلى أضدادها حقيقة لا تقبل الضد قطعاً، وهي انقلاب الشيء مع احتفاظه بماهيته إلى عين ضده، كـــأن ينقلب الجمال المطلق ـــ مع احتفاظه بهذا الجمال ـــ إلى القبح الحقيقي! فتحول جمال الربوبية الواضح والظاهر ظهوراً جلياً إلى ضده مع بقائه على ماهيته هو اشد محالا واكثر عجباً في أحكام العقل."[11]

ومن هنا تبرز قدرة النورسي على تغيير مسار المفاهيم وشحنها دائما ببعد إيجابي وكأنه يريد أن يعلم الإنسان بصفة عامة وليس الإنسان المسلم فقط أينما كان هذا الإنسان ومتى وجد ، أن يعلمه كيفية النظر إلى العالم والأشياء والواقع وكل ما قد يتبادر إلى الذهن، نظرة إيجابية، مسترشدا بمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم، القائم على التبشير لا التنفير، والقائم كذلك على المنهج القرآني الذي بالرغم من كونه كتابا يقرن الوعيد بالخيبة الدنيوية والأخروية وبعدم القدرة على رؤية الحقيقة الربانية والإقبال عليها بحيوية، ويقرن في الوقت نفسه السعادة الدنيوية والأخروية بالإقبال على المنهج القرآني القويم الذي " يرشد الجن والإنس إلى الآيات الكونية التي سطَّرها قلمُ القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور. وهو الذي ينظر إلى الموجودات التي كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الحرفي، أي ينظر إليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسنَ خلقه! ما أجملَ خلقه! ما أعظم دلالته على جمال المبدع الجليل. وهكذا يكشف أمام الانظار الجمالَ الحقيقي للكائنات." [12]

إن الجمال الحقيقي هو الذي يقود إلى معرفة الخالق المبدع، لأن الجمال الذي لا يقود إلى معرفة الله ولا يقود إلى معرفة اكتشاف الحقيقة المطلقة، ولا يزكي الروح، ولا يرقى بها عن متاهات المادة الفانية ولا يخلص النفس من أمراضها ومن همومها التافهة وأوهامه القاتلة، جمال زائل ولا فائدة ترجى منه سوى الفتنة. وبعبارة أخرى إن الجمال الحقيقي الذي هو وسيلة من وسائل التزكية الإنسانية، هو الجمال الذي تحضر فيه العبادة باعتبارها طاقة محركة تنقل بريقها إلى كل من يحسن ذوقها.

إن الهدف الذي يحرك النورسي وهو تعميق تحليله هو الإنسان بصفة عامة فهو بالنسبة له حلقة إيجابية لأن الله قد فضله على جميع الكائنات، لكن جزءا كبيرا يعيش حيرة عارمة، تحيط به الأبواب من كل جانب ولكنه لا يملك مفاتيح هذه الأبواب والنورسي بإعادة قراءته القرآن الكريم بمستوييه المقروء والمنظور حسب تصوره، واسترشاده بالمنهج النبوي قد تمكن من أن ينبته إلى هذه المفاتيح، ويعرف الناس عليها مقدما إياها على طبق من ذهب لكل من هو في حاجة إليها، يقول رحمه الله :" نعم أيها الإنسان! إنك من جهة جسمك النباتي ونفسك الحيوانية جزءٌ صغير وجزئيٌ حقيرٌ ومخلوقٌ فقير وحيوانٌ ضعيف تخوض في الأمواج الهادرة لهذه الموجودات المتزاحمة المدهشة. إلاّ أنك من حيث إنسانيتك المتكاملة بالتربية الإسلامية المنوَّرة بنور الإيمان المتضمن لضياء المحبة الإلهية سلطانٌ في هذه العبدية.. وانك كليٌ في جزئيتك.. وانك عالمٌ واسع في صغرك.. ولك المقامُ السامي مع حقارتك فأنت المشرفُ ذو البصيرة النيرّة على هذه الدائرة الفسيحة المنظورة، حتى يمكنك القول: "إن ربيَ الرحيمَ قد جعلَ لي الدنيا مأوىً ومسكناً، وجعل لي الشمس والقمر سراجاً ونوراً، وجعل لي الربيعَ باقةَ ورد زاهية، وجعلَ لي الصيفَ مائدةَ نعمة، وجعل لي الحيوانَ خادماً ذليلاً، وأخيراً جعل لي النباتَ زينةً واثاثاً وبهجة لداري ومسكني".[13]

فالإنسان من زاوية النظر النورسية هذه عالم قائم بذاته، ومعنى ذلك هو أنه في حد ذاته منطلق للتأمل، لأن التأمل الحقيقي لابد وأن يقود المرء إلى وعي طبيعة وجوده في الكون، وعلى أساس ذلك يستطيع أن يحدد طبيعة تصرفه في الواقع، ويحدد كذلك طبيعة تعامله مع الوجود، في إطار سلوك تعبدي، دائم مستمر لا يعرف الفتور. يقول النورسي: " منها كمال حسن الصنعة؛ إذ كمال حُسن الصنعة في هذه المصنوعات، يدل

على الرسالة الاحمدية دلالة قطعية؛ لان جمال هذه المصنوعات المزينات يُظهر للناظر حُسنَ صنعةٍ وزينةٍ بالمشاهدة، وان حسن الصنعة وزينة الصورة يدلان بالبداهة على أن في صانعها ارادةَ تحسينٍ وطلبَ تزيينٍ في غاية القوة. وان إرادة التحسين وطلبَ التزيين يدلان بالضرورة على أن في صانعها محبةً علويةً لصنعته، ورغبةً قدسية لإظهار كمالاتِ صنعته. وان تلك المحبة والرغبة تدلان بالقطع على أن الإنسان الذي هو اكملُ المصنوعات وأبدعها واجمل المخلوقات واجمعها، هو المظهرُ الجامعُ والمدارُ البارعُ لتلك المحبة والرغبة، وهو الذي تتمركزان فيه. وان الإنسان لكونه اجمع وأبدع المصنوعات فهو الثمرة الشعورية لشجرة الخلقة. أي هو لها كثمرة ذات شعور. فلكونه كالثمرة، فهو ما بين أجزاء الكائنات جزء أجمع وأبعد من جميع الأجزاء. فلكونه اجمعَ وابعدَ وذا شعور، فله نظرٌ عام وشعور كلي. فلكون نظره عاماً يرى مجموع شجرة الخلقة، ولكون شعوره كلياً يعرف مقاصد الصانع، فهو المخاطَب" [14]

ومن هنا فالذي يتوصل إلى وعي ذاته، باعتبارها عنصرا جماليا يستمد بهجة جماله من الجمال المطلق ظاهرا وباطنا، ويدرك مغزى خلقها ووجودها، بتدبر الآيات الكونية ببعد جمالي، يستحيل عليه أن ينـــزل إلى مستوى والتصرفات الحيوانية وسلوكها، فيأتي ما يشوه القيمة الروحية للجمال، التي تتشربها الروح بتفاعلها الإيجابي برؤية جمالية مع الكون بكل تفاصيله وجزئياته.

ولذلك كذلك فالذي يعي هذه الحقيقة لا يمكن أن يفكر في الانتحار، أو تهديم أخيه الإنسان، أو حتى تشويه كل أو بعض ما يجلب السعادة لأخيره الإنسان، ومن هنا كذلك فإن الحضارة التي تفتقر إلى الرؤية الجمالية وفق المنهج القرآني، وكما تصورها النورسي، ليست حضارة حقيقية لافتقارها إلى مغزى حركيتها، وهي وإن كانت تقدم للإنسان السعادة الآنية كما قد يظن، فإنها مع ذلك عاجزة عن تقديم الطمأنينة الروحية لكم واسع من المحرومين. يقول النورسي:" نعم إن السموَّ والرقي الحقيقي إنما هو بتوجيه القلب، والسرِ، والروح، والعقل، وحتى الخيال وسائر القوى الممنوحة للإنسان، إلى الحياة الأبدية الباقية، واشتغال كلٍّ منها بما يخصّها ويناسبها من وظائف العبودية. أما ما يتوهمه أهلُ الضلالة من الانغماس في تفاهات الحياة والتلذّذ بملذاتها الهابطة والانكباب على جزئيات لذاتها الفانية دون الالتفات إلى جمال الكلياتِ ولذائذها الباقية الخالدة

مسخّرين القلب والعقل وسائر اللطائف الإنسانية تحت إمرة النفس الأمارة بالسوء وتسييرها جميعاً لخدمتها، فان هذا لا يعني رقياً قط، بل هو سقوطٌ وهبوط وانحطاط".[15]

ومن القضايا التي تدخل في نطاق الجمال باعتباره حلقة من حلقات التزكية الإنسانية، قضية التوازن الذي بني عليه الكون بمختلف عناصره، والانسجام الذي يسود مختلف هذه العناصر فيما بينها حتى تتكامل، لأن الجمال مقوم من مقومات التوازن، ومكون من مكونات الانسجام، بل لا يمكن تصور الجمال في إطار لا انسجام أي في إطار الفوضى، ولا يمكن للجمال أن يتفاعل وينتج تأثيره بعيدا عن التوازن، فلقد أقام الله تبارك وتعالى الدليل على وجود الانسجام بين مختلف عناصر الكون، بدءا من عناصر الطبيعة، وانتهاء بذات الإنسان نفسه، والنورسي لا يفتأ يذكر بذلك ومحمسا المرء على السعي وراء عناصر هذا الانسجام ليلمس بالملموس غاية وجوده ووظيفته في الكون، ويلمس كذلك غاية وجود باقي الكائنات، ووظيفتها في حلقة التوازن والانسجام، ليبرز الجمال مرة ثانية مكونا رئيسا في ترتيب عناصر لجمال، يقول النورسي متحدثا عن الجمال حقيقة الانسجام الذي يقوم عليه الكون، كما سطر عناصره القرآن الكريم :" فنرى أن القرآن الكريم يبين تلك الحقيقة النورانية بجميع فروعها واغصانها وبجميع غاياتها وثمراتها بياناً في منتهى التوافق والانسجام بحيث لا تعيق حقيقةٌ حقيقةً أخرى ولا يفسد حكمُ حقيقةٍ حُكْماً لأُخرى، ولا تستوحش حقيقة من غيرها. وعلى هذه الصورة المتجانسة المتناسقة بيّنَ القرآن الكريم حقائق الأسماء الإلهية والصفات الجليلة والشؤون الربانية والأفعال الحكيمة بياناً معجزاً بحيث جعل جميع أهل الكشف والحقيقة وجميع أولي المعرفة والحكمة الذين يجولون في عالم الملكوت، يصّدقونه قائلين أمام جمال بيانه المعجز والاعجابُ يغمرهم: "سبحان الله! ما اصوبَ هذا! وما اكثر انسجامه وتوافقه وتطابقه مع الحقيقة وما اجمله وأليقه".[16]

وبكلام آخر إن من يقف حقيقة على هذه الأشياء ستسمو روحه وتشرئب إلى الجمال المطلق بإتيان كل ما يقرب إليه تعالى ، والابتعاد عن كل ما يبعد ويحول دون إدراكه والذوق من جماله فكل "من يحمل قلبا حيا، لا شك انه يحب من كان ذا جمال وكمال وإحسان، وهذه المحبة تتزايد وفق درجات ذلك الجمال والكمال والإحسان، حتى تبلغ درجة العشق والتعبد. فيضحي صاحبها بما يملك في سبيل رؤية ذلك الجمال،

بل قد يضحي بدنياه كلها لأجل رؤيته مرة واحدة. وإذا علمنا أن نسبة ما في الموجودات من جمال وكمال واحسان إلى جماله وكماله واحسانه سبحانه وتعالى لا يبلغ أن يكون لُميعات ضئيلة بالنسبة للشمس الساطعة. فإذن تستطيع أن تدرك - إن كنت انساناً حقاً - مدى ما يورثه من سعادة دائمة ومدى ما يبعث من سرور ولذة ونعمة، التوفيق إلى رؤية مَن هو الأهل لمحبة بلا نهاية وشوق بلا نهاية ورؤية بلا نهاية في السعادة بلا نهاية".[17]

وخلاصة الكلام في هذه العجالة أن معيار الجمال وسيلة من وسائل الارتقاء بالإنسان وتخليصه من ويلات السقوط الأخلاقي، ومن الانهيار النفسي، وهو كذلك عنصر أساسي في بناء الإنسان الذي من خلاله يتم البناء الحضاري. وعلى العموم فإن مبحث الجمال عند النورسي في رسائله مبحث واسع يحتاج إلى دراسة مستقلة بذاتها، فما ذكرناه بخصوص هذا الموضوع مجرد غيض من فيض وإلا فإن في النفس أشياء كثيرة بخصوص هذا المبحث توحي بها كل فقرة من فقرات تراث النورسي.

المبحث الثاني

الأبعاد الروحية، لأسماء الله الحسنى، وعمق تأثيرها في البناء التربوي

في كل مرة تقرأ فيها المرء رسائل بديع الزمان النورسي، أو على الأقل نتفا منها فلابد أن تكون النتيجة إضافة جديد في إيمان القارئ، أو تغييرا في سلوكه، ولابد أن يلمس كذلك أنه غير المرء الذي كان من قبل، فكل عبارة من عبارات الرجل وكل مرحلة يقطعها في التدبر في كلامه، وكل منطقة هي درجة تقرب من الحقيقة القرآنية، ومعنى ذلك هو أن أهم ما كان يثير اهتمام النورسي عمليا هو الإنسان، يقول أحد المهتمين الكبار بتراث النورسي في هذا الموضوع: "...الإنسان هو نقطة المركز من دائرة عالم "النورسي" الفكري، وعقله موضع نقاشه وقلبه وروحه متلمس بصيرته وإنه لا يني يشعل في الإنسان نورا إيمانيا يبصر به مواقع الزلل والخطأ في الفكر والسلوك. ويضع يده على مفاتيح الحق والعدل والجمال في النفس والحياة، ويزيح الأستار عن طهر الحياة وقداستها، ويبرهن له أنها أصل الخلق والوجود، بينما الموت خلق عارض ليس له قوة

إلغاء الحياة أو إيقاف مدها الزخار إلى بحر الأبدية والخلود"[18]. وفي هذه الأشياء لم يحد النورسي عن منهج القرآن، الذي يعتبر الإنسان محوره المركزي في ظل ثنائية الهداية والضلال، التي تخفي نموذجين إنسانيين:

النموذج الأول: هو الإنسان الضال والتائه عن الحق، والمنغمس في دروب المعتقدات والأفكار المادية وغيرها ومهمة الرسائل هي أن تمد له يد العون لتنكشف عن فكره الحجب وعن عقله الغشاوة.

النموذج الثاني: هو الإنسان المؤمن وقد يكون هذا الإيمان أداة محركة له في هذا العالم فيحقق بذلك سعادة الدنيا والآخرة، وإما أن يكون غافلا عن دوره في الوجود ومهمة الرسائل أن توقظه من الغفلة.

لقد اهتم النورسي بالنموذجين معا، إذ لم يترك صنفا إلا وذكره إما في باب التزكية أو في باب التبشير بالجنة وحسن العاقبة وإما في باب التحذير وشحذ الهمم والإيقاظ من الغفلة، وقد كانت وسائله كثيرة ومتعددة كما سبق وأشرنا، ويبرز من بينها دور الأسماء الحسنى في تزكية النفس والارتقاء بها في مدارج التقرب إلى صاحب الأسماء، ولكن شريطة أن تستوعب الذات هذه الأسماء على حقيقتها، ذلك لأنها مفاتيح يستطيع الإنسان أن يفتح بها جميع أسار الوجود، بدءا من ذاته هو نفسه، يقول النورسي:" إن " انا " مفتاح؛ يفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون. فهو بحد ذاته طلسمٌ عجيب، ومعمىً غريب. ولكن بمعرفة ماهية " انا " ينحَلّ ذلك الطلسم العجيب وينكشف ذلك المعمى الغريب " أنا " وينفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الوجوب.

وقد ذكرنا ما يخص هذه المسألة في رسالة " شمة من نسيم هداية القرآن " كالأتي:

" اعلم! إن مفتاح العالم بيد الإنسان، وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب ظاهراً إلاّ انها منغلقة حقيقةً فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحاً يفتح كل ابواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلاّق الكون، والمفتاح هو ما فيك من " انا " . إلاّ ان " انا " ايضاً معمىً مغلق وطلسم منغلق. فاذا فتحتَ " انا " بمعرفة ماهيته الموهومة وسر خلقته انفتح لك طلسم الكائنات كالآتي.

ان الله جل جلاله وضع بيد الإنسان امانةً هي: " انا " الذي ينطوي على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائق اوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها المقدسة. اي يكون " انا " وحدة قياسية تُعرَف بها اوصاف الربوبية وشؤون الالوهية."[19]

إن أسماء الله الحسنى قد انعكست في الإنسان كما انعكست في باقي المخلوقات، فالنورسي قد قدم رؤية مركبة عن علاقة الإنسان بأسماء الله الحسنى، وهي رؤية تستقي معانيها من كل المكونات المعرفية الموجودة في القرآن الكريم، والموجودة كذلك في الوجود، أو القرآن المنظور، والعنصر المحوري في هذا هو الإنسان، "أنا" فأنا هي مفتاح الكنوز الموجودة المختفية في أسماء الله الحسنى، ومن خلالها تنفتح جميع كنوز الوجود، لكن ذلك كله مرتبط في العمق بوعي "أنا" نفسها، لأن الأنا في حد ذاتها طلسم عجيب، فعندما ينفتح هذا الطلسم، وتظهر كنوزه تنفتح أسرار الوجود وتظهر كنوزه وتبرز، فـــ"أنا" وحدة قياس لمعرفة سر الربوبية، وشؤون الألوهية.

إن أجمل ما يمكن أن يقدمه مصلح في مستوى بديع الزمان النورسي للإنسان الحائر في لغز المخلوقات، والإسنان المسكون بأوهام العصر الواقع تحت تأثير طغيان المادة وتسلطها، والباحث عن حقيقة وجوده في هذا الكون الفسيح، فأجمل يقدم هو تصوره بخصوص أسماء الله الحسنى، في علاقتها بالوجود، والإنسان جزء من هذا الوجود الفسيح، فما من "علم أو معرفة أو معنى سام أوصفة جميلة على هذه الأرض إلا وتستمد حياتها، وتنال قوت بقائها من واحد من هذه الأسماء المقدسة الطاهرة، أو من جملة منها"[20] لقد حمل الإنسان الأمانة العظمى وهي أمانة تعمير الكون، وبناء الحضارة، من زاوية كون الله تبارك وتعالى هو المؤثر في صيرورة التاريخ وهو الفاعل في حركة الإنسان الحضارية، فالإنسان باعتباره أرقى المخلوقات وأشرفها، ملزم بأن يتذوق أسماء الله الحسنى بشكل صحيح ليتمكن بالفعل من نقل تأثيرها إلى الواقع والحياة في شكل تشييد للحضارة، وبناء ملموس ومحسوس لمملك الأسماء الإلهية الحسنى في الحياة.

وبناء على هذه الرؤية العميقة، نستطيع القول بأن النورسي قد قدم علاجا آخر للإنسانية الضالة، والتي تعيش أزمة السقوط الحضاري، وتعيش على هامش البناء الحضاري الصحيح، وكأن النورسي يريد أن يقول للإنسانية كافة، إن من يريد تدليلة

المادة، من زاوية تجلى اسم من أسمائه تعالى، ومن يريد تسخير الكون خدمة للإنسان، وتقربا إليه تعالى، يستحيل عليه أن يسخر هذا التدليل فيما يضر الإنسانية، ولا يجلب لها الطمأنينة، والسعادة في الدنيا والآخرة. وما أعظمها من أمانة تجرأ الإنسان على تحملها يقول النورسي:" أيها الإنسان! إن ما تملكه من نفسٍ ومال ليس ملكاً لك، بل هو أمانةٌ لديك، فمالكُ تلك الأمانة قديرٌ على كل شيء، عليم بكل شيء، رحيمٌ كريم، يشتري منك ملكه الذي عندك ليحفَظَه لك، لئلا يضيع في يدك، وسيكافؤك به ثمناً عظيماً، فأنت لست الاّ جندياً مكلفاً بوظيفة، فاعمل لأجله واسعَ باسمه، فهو الذي يرسل إليك رزقَك الذي تحتاجه، ويحفظك مما لا تقدر عليه.

إن غاية حياتك هذه ونتيجتها هي أن تكون مظهراً لتجليات أسماء ذلك المالك، ومعكساً لشؤونه الحكيمة.. وإذا ما أصابتك مصيبةٌ فقل:(إنّا لله وإنّا اليه رَاجعُون) (البقرة:156). أي أنا طوعُ أمر مولاي، فان كنتِ قادمةً أيتها المصيبة بإذنه وباسمه، فأهلاً ومرحباً بك، فنحن لا محالة راجعون إليه لامناصَ من ذلك. وسنحظى بالمثول بين يديه، فنحن حقاً مشتاقون اليه.. فما دام سيُعتقنا يوماً من تكاليف الحياة فليكن ذلك على يديك ايتها المصيبة.. انا مستسلمٌ راضٍ. ولكن إن كان الأمر والإرادة قد صدر اليك منه سبحانه لأجل الابتلاء والاختبار لمدى محافظتي على الأمانة ولمدى قيامي بواجباتي، فلا أسلّم ما استطعت أمانة مالكي لأيدٍ غير أمينة. ولا استسلم لغير أمره ورضاه سبحانه."[21]

فمن كان هذا هو توجهه فإنه سيحصل على سعادة الدارين، وسيحصل على طمأنينة النفس والروح، وستكون نظرته للحياة نظرة إيجابية، لأنه قد استقر في قرارة نفسه أن الحياة الدنيا فانية أن الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة، وليس معنى ذلك انـــزواء الإنسان في ركنه متعبدا، زاهدا في الحياة منتظرا الموت والسفر الأخير، بل على العكس من ذلك فالنورسي يحث الناس تذوق أسمائه تعالى، لتمكنوا من فتح طلاسيم الذات، ومن خلالها فتح طلاسيم الكون وكله وتسخيره.

وتعتبر الكلمة العاشرة محطة عجيبة لتتبع فاعلية أسماء الله الحسنى، من خلال مبحث الحشر، وهو مبحث نستطيع أن نلمس منه الفاعلية نفسها في الحياة، في ضوء جملة حقائق، ظاهرة التجلي في الكون:

الحقيقة الأولى: باب الربوبية والسلطنة وهو تجلي اسم "الرَّب"

الحقيقة الثانية: باب الكرم والرحمة وهو تجلي اسم "الكريم والرَّحيم" باب الكرم والرحمة

الحقيقة الثالثة: باب الحكمة والعدالة وهو تجلي اسم "الحكيم والعادل"

الحقيقة الرابعة: باب الجود والجمال وهو تجلي اسم "الجواد والجميل"

الحقيقة الخامسة باب الشفقة وعبودية محمد(صلى الله عليه وسلم) وهو تجلي اسم "المجيب والرَّحيم"

الحقيقة السادسة: باب العظمة والسرمدية وهو تجلي اسم "الجليل والباقي"

الحقيقة السابعة: باب الحفظ والحفيظية وهو تجلي اسم "الحفيظ والرَّقيب"

الحقيقة الثامنة: باب الوعد والوعيد وهو تجلي اسم "الجميل والجليل"

الحقيقة التاسعة: باب الإحياء والاماتة وهو تجلي اسم "الحي القيوم والمحيي والمميت"

الحقيقة العاشرة: باب الحكمة والعناية والرحمة والعدالة وهو تجلي اسم"الحكيم والكريم والعادل والرَّحيم"

الحقيقة الحادية عشرة: باب الإنسانية وهو تجلي اسم "الحق"

الحقيقة الثانية عشرة: باب الرسالة والتنـــزيل وهو تجلي "بِسْمِ الله الرَّحْمن الرَّحيم"

لقد جمعت هذه الأسماء تقريبا جميع فاعليات الوظيفية التي ترعى حركة الإنسان وما على المرء سوى فتح قلبه لاستعابها بغرض فهم واستيعاب أسرار الكون في أفق تسخيرها. ومن هنا يظهر بجلاء هدف النورسي وغايته من مبحث أسماء الله الحسنى وهي الارتقاء بالإنسان فوق تفاهة الحياة المادية التي لا معنى وقيمة لها. وبكلام آخر إن

النورسي قد كان مسكونا برغبة جعل الناس على قدر واحد في استيعاب القرآن الكريم، الذي عرفه بقوله رحمه الله: "هو الترجمةُ الأزلية لهذه الكائنات، والترجمانُ الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسّرُ كتاب العالَم.. وكذا هو كشافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والارض.. وكذا هو مفتاحٌ لحقائق الشؤون المضْمَرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة..وكذا هو خزينةٌ للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية.. وكذا هو أساسٌ وهندسةٌ وشمسٌ لهذا العالم المعنوي الإسلامي.. وكذا هو خريطةٌ للعالم الأُخروي.. وكذا هو القولُ الشارح والتفسيرُ الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته واسمائه وشؤونه.. وكذا هو مربٍّ للعالم الانساني، وكالماء وكالضياء للانسانية الكبرى التي هي الإسلامية.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خُلِقَ البشرُ له.. وكذا هو للإنسان: كما انه كتابُ شريعة كذلك هو كتاب حكمة، وكما انه كتابُ دعاء وعبودية كذلك هو كتابُ أمر ودعوة، وكما انه كتابُ ذكرٍ كذلك هو كتابُ فكر، وكما انه كتابٌ واحد لكن فيه كتبا كثيرةٌ في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنـــزل مقدسٍ مشحون بالكتب والرسائل . حتى انه قد أبرز لمشْرَب كلِّ واحدٍ من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كلِّ واحدٍ من اهل المسالك المتباينة من الاولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرســـــائل."[22]

المبحث الثالث:

مقومات الحكاية، ومركزيتها في دعم المنهج التربوي.

تعتبر الحكاية والتمثيل من أهم الأدوات والآليات التي توسل بها بديع الزمان سعيد النورسي في تزكية النفس الإنسانية و بسط مشروعه القرآني الحضاري، ولا تكاد رسالة من رسائله تخلو من حكاية تمثيلية، أو من مثال، وبالأرقام فقد بلغ عدد الحكايات والتمثيلات في الرسائل:

في الكلمات: 183 حكاية
في المكتوبات: 95 حكاية
في اللمعات: 106 حكاية
في الشعاعات: 38 حكاية
في إشارات الإعجاز: 32 حكاية
في المثنوي العربي النوري: 92 حكاية
في الملاحق: 19 حكاية
في صقيل الإسلام: 7 حكايات
في سيرة ذاتية: 30 حكاية.

تبين هذه الأرقام أن الحكاية عنصر أساسي في منهج النورسي التربوي، فالحكاية هي السبيل إلى تقريب الكثير من الأشياء التي يريد بلوغها إلى عموم متلقيه، وبمصطلح الرسائل، طلبته. فالعنصر المركزي الواجب مراعاته عند مساءلة هـــذه الحكايات هو كونها مرتبطة في العمق بالرؤية، التي ينطلق منها النورسي فضرب الأمثال وتوظيف الحكاية عنده ليس مسألة غريبة عن إطار القرآن وعالمه البهيج، بل هي من آثار القرآن في شخصيته وقد أكد ذلك في كثير من المواطن والمواضع يقول: " انه مهما يظهر من قوة التأثير، وبهاء الجمال في أسلوب كتاباتي، فإنها ليست مني، ولا مما مضغه فكري، بل هي من لمعات "ضرب الأمثال" التي تتلألأ في سماء القرآن العظيم، وليس حظي فيها الا الطلب والسؤال منه تعالى، مع شدة الحاجة والفاقة، وليس لي إلاّ التضرع والتوسل اليه سبحانه مع منتهى العجز والضعف. "[23]

منذ الوهلة الأولى نلمس أن للحكاية عناصر ثابتة تكاد تعيد نفسها في أغلب الحكايات، ولها عناصر محيطة أو مساعدة. فالحكاية عند النورسي ذات مغزى ووجودها في منهجه التربوي وتصوره الحضاري ضروري، وتوظيفها فعال جدا في تقريب الفكر القرآني من الأفهام والألباب وقد بين ذلك قائلا: "إن سبب إيرادي التشبيه والتمثيل بصورة حكايات في هذه الرسائل هو تقريب المعاني إلى الأذهان من ناحية، وإظهار مدى معقولية الحقائق الإسلامية ومدى تناسبها ورصانتها من ناحية أخرى، فمغزى

الحكايات إنما هو الحقائق التي تنتهي إليها، والتي تدل عليها كنايةً. فهي إذن ليست حكايات خيالية وانما حقائق صادقة. "[24]

الاسترشاد بالقرآن، والصدق في مضمون الحكاية وحقائقها، والارتباط بالرؤية الإسلامية للكون، والحرص على الارتقاء بالإنسان في كل زمان ومكان، وتزكية روح الإنسان، والتركيز على وظيفة الاعمار وبناء الحضارة التي أنيطت بالإنسان. تلكم هي أهم العناصر المتحكمة في بنية الحكاية التي في الأصل مقاييس قرآنية، أو بالأحرى هي مقاييس رسائل النور.

تنطلق الحكاية عند النورسي بدافع تربوي، ذلك أن أحد تلامذة الأستاذ كما يطلق عليه مريدوه سأله النصيحة، فأجابه إلى ذلك بذكر ثماني حكايات، تأملية وتفكرية، وهي حكايات وليدة اللحظة التي طرح فيها السؤال، والدليل على ذلك هو إصرار النورسي على أن المقصود بها بالدرجة الأولى هو نفسه لكونها أحوج ما تكون إلى النصح، يقول "أيها الأخ! لقد سألتني بعض النصائح، فها أنذا أسدي إليك بضع حقائق ضمن ثماني حكايات قصيرة، فاستمع إليها مع نفسي التي أراها أحوج ما تكون إلى النصيحة، وسأوردها لك بأمثلة عسكرية لكونك جندياً، فلقد خاطبتُ بها نفسي يوماً خطاباً مسهباً، في ثماني (كلمات) أفدتها من ثماني آيات كريمات، اذكرها الآن لنفسي ذكراً مقتضباً، وبلسان العوام، فمن يجد في نفسه الرغبة فليُلق السمع معنا."[25]

يدل هذا الكلام على أن للحكاية غاية محددة، فهي ذات مغزى في الدرجة الأولى، وهي إلى جانب ذلك مسألة تفكرية وهذا مرتكز محوري في الحكاية، وتصور مرتبط بالمنطلق النظري العام عند النورسي، والذي ولا يفتأ يذكر به في كل وقت وحين، وهو أن كل ما يأتيه الإنسان من سلوكات وأفعال، وكل ما يحيط به هو في النهاية موضوع يدعو إلى التفكر، وإلى العبادة، ومن هنا تصبح الكتابة بصفة عامة عبادة، والحكاية التي هي جزء لا يتجزء من حقل الكتابة، عبادة أو هي سبيل من سبل العبادة.

وتفرض طبيعة الحكاية نفسها في رسائل النور سؤالا مهما جدا وهو هل الحكاية جزء من الغاية التربوية أم إن الغاية التربوية جزء من الحكاية.؟ بعبارة أخرى أيهما أسبق الغاية التربوية أم الحكاية؟ إن أول ما قد يتبادر إلى الأذهان هو أن الحكاية جزء من

الغاية التربوية، فالمتأمل في مواضيع هذه الحكايات، في ضوء عناوينها الضمنية، وانطلاقا كذلك من عتباتها الاستفتاحية، سيلاحظ أنها أحاطة بكل ما يتصل بالذات الإنسانية، بدءا من غاية وجودها وهو العبادة، مرورا بما يحقق لها السعادة الدنيوية والأخروية، ويقودها في رحلة المصير الدنيوي قبل الأخروي.

والمتأمل في هذه العبارات سيلاحظ بأنها تشكل مرتكزات الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة وذاك هو لب رسائل النور ومحورها، وعمق ما ندر الداعية بديع الزمان النورسي حياته له.

وتؤسس الحكاية التي تكون الإطار الثاني، كما سبقت الإشارة، منهجها خاص بها، فأغلب الحكايات التي يتوسل بها النورسي لا يتجاوز شخوصها في الغالب الشخصيتين، حيث تواجه كل شخصية اختيارين صعبين، أو بتعبير النورسي طريقين أحدهما يقود إلى النجاة، والآخر يقود إلى الهلاك. والجميل في هذه الحكاية هو تحول بعض الأحداث إلى شخوص تمارس الحوار بطريقة ضمنية، تقوم مقام الشخصية الثانية الواردة في باقي الحكايات.

وتمثل كل شخصية طرفا أساسا في معادلة النورسي التربوية، مختزلا بذلك المسارين الكبيرين المتحكمين في حياة الإنسان، وهما مسار الاستقامة والتوازن ومسار الخطيئة والتهور. ومختزلا كذلك قضية الصراع الأبدي بين الخير والشر، على أن النورسي لا يقدم ذلك في شكل صراع بقدر ما يقدمه في شكل مقارنة عقلية تستهدف متلقيه، وتستهدف جرهم إلى قبول الحقيقة التي يريد الوصول إليها بكل عفوية ومنطق، وبأسلوب بعيد عن الترهيب، لكنه قريب من الترغيب بملمح لطيف وهادئ يشعر معه المرء بأن قيود الأمر الجازم لا تنهال عليه كالصواعق المفزعة.

وبعبارة أخرى فإن الحكاية عند النورسي لا تنبني على صراع الشخصيات فيما بينها كما هو الحال في أنواع من الكتابة السردية الحديثة، وخاصة في الرواية التي تلح بعض نظرياتها على بناء شخصياتها على أساس صراع يخفي صراعا آخر بين الطبقات أو الأجيال أو الثقافات، أو أشياء أخرى. أما في حكاية النورسي فالشخصية لا تعرف سوى صراع واحد هو صراع النفس والهوى، بين غياب وحضور، فعندما تتلزم

الشخصية بطريق التوازن والرزانة تتغلب منطقيا على هوى النفس، وعندما تختار سبيل الغواية والهوى، تكون الشخصية منساقة وراء هوى النفس. فالهدف عند النورسي بالدرجة الأولى، والتي سخر لها حياته بكاملها، هي بناء الإنسان في كل زمان ومكان مسترشدا بمنهج القرآن وسالكا سبيل الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ويرتكز هذا السرد على توسيع دائرة معادلة الشخوص، حيث يبرز جانب الاستقامة بأبعاد إيجابية، في ثوب الاختيار السليم والأفضل نظرا لأن عواقبه مضمونة، في الوقت الذي يبرز فيه جانب لا استقامة في ثوب الاختيار غير المناسب، لأن نتائجه وخيمة.

وبعد سرد الحكاية تأتي مرحلة أخرى ذات أهمية قصوى، لا يكتمل الدور التربوي، ولا يأخذ المغزى معناه إلا بها وهي فك رموز الحكاية، فهذه المحطة مهمة جدا في منهج النورسي السردي إن صحت هذه العبارة لكونها تعيد وضع عناصر الحكاية في سياقها التربوي، وكأن النورسي يريد من خلال ذلك ألا يضل تفكير المتلقي وألا يؤدي به الفهم بعيدا عما قصده السارد أو النورسي يقول في فك رموز الحكاية الثامنة: " ***فيا*** نفسي الباكية على ما ضحكتْ أيام شبابها. اعلمي! إن ذلك الجندي المسكين المتورط هـــــو أنـــــت، وهو الإنسان.. وان ذلك الأسد هـــو الأجـــل.. وان أعواد المشنقة تلك هي الموت والزوال والفراق الذي تذوقه كل نفس.. ألا تَرَين كيف يفارقنا كل حبيب اثر حبيب ويودعنا ليل نهار.. أما الجرحان العميقان، فأحدهما: العجز البشري المزعج الذي لا حدّ له. والآخر: هو الفقر الإنساني المؤلم الذي لا نهاية له.. اما ذلك النفي والسفر المديد فهو رحلة الامتحان والابتلاء الطويلة لهذا الإنسان، التي تنطلق من عالم الارواح مارةً من رحم الأم ومن الطفولة والصبا ثم من الشيخوخة ومن الدنيا ثم من القبر والبرزخ ومن الحشر والصراط.. واما الطلسمان فهما الإيمان بالله وباليوم الآخر. نعم ان الموت بهذا الطلسم القدسي يلبس صورة فرس مسخّر بدلاً عن الأسد، بل يتخذ صورة بُراق يُخرج الإنسان المؤمن من سجن الدنيا إلى روضة الجنان، إلى روضة الرحمن ذي الجلال. ومن هنا كان الكاملون من الناس يحبّون الموت ويطلبونه، حيث رأوا حقيقته. ثم ان سير الزمان ومروره على كل شئ ونفوذ الزوال والفراق والموت والوفاة فيه يتخذ بهذا الطلسم الإيماني صورةً وضّاءة حيث تحفـــز الإنسان إلى رؤية الجِدَّة بتجدد كل شئ، بل يكون مبعث التأمل في ألوان مختلفة متنوعة وأنواع متباينة لمعجزات إبداع

الخالق ذي الجلال وخوارق قدرته، وتجليات رحمته سبحانه ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين. بمثل ما يضفي تبدل المرايا العاكسة لألوان نور الشمس، وتغيّر الصور في شاشة السينما من جمال وروعة إلى تكون المناظر الجذابة وتشكلها. "[26] تعتبر الحكاية الثامنة من أكثر الحكايات التي درسنا استعمالا للرموز، وتبرز فيها بشكل قوي قدرة النورسي الأدبية، وتمكنه من قاموس رمزي خاص، ولقد كان النورسي موفقا إلى حد بعيد في توظيفها خدمة للفكرة المحورية في الأقصوصة في الدرجة الأولى، وخدمة للمشروع العام وهو الرقي بالإنسان في الدرجة الثانية. والجذور يبرز هذه الرموز ويحدد دلالاتها، كما تصورها النورسي

إن هذه الرموز ليست رموزا مجنحة ولا رموزا معقدة بحيث يستعصي على المتلقي فهم أبعادها بالرغم من أن النورسي يتكفل بشرحها وإبراز معانيها، وهي رموز تحيل، إذا ما نظرنا إليها بصورة مجملة، على كافة مظاهر الإنسان، النفسية والمعيشية، وحتى المظاهر التفكرية التي تدل على الكون وعلى خالقه.

وعلى العموم فإن الحكاية عند النورسي لن تكشف كل أسرارها وكل مخزونها الأدبي والفني والفكري والتربوي في مثل هذه الدراسة، بل لا بد من دراسات متعدد ومتنوعة خاصة وأن شأنها شأن الجانب الأدبي في شخصية النورسي التي تجسدها الرسائل من هنا فإن الحكاية والأقصوصة وضرب الأمثال في رسائل النور مجرد حلقة في سلسلة واسعة من القضايا ذات البعد الأدبي، والتي ينتظمها فيما نرى نظرية أدبية متكاملة تنتظر من يستخلص مكوناتها من الرسائل وكل ما كتب النورسي، وأسأل الله أن يوفقني إلى المساهمة في كشف بعض جوانب هذه النظرية.

الهوامش

1 الإنسان في فكر الإمام النورسي وجودا، ومهمة، وغاية، النظرة القرآنية للإنسان، من خلال رسائل النور، ص ص: 5 ــ 20 أعمال المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان سعيد النورسي، شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ص5

2 لقد تتبع د. عماد الدين خليل هذا الموضوع في بحث خاص بعنوان: رؤية جمالية في الكلمات، يقول:" إن قارئ "الكلمات" يعثر بين لحظة وأخرى على مفردات مشتقة من قاموس الجمال: الشعاع، التلألؤ، الزينة، الصنعة، النور، الغصون، الرشحات، اللوامع، القطرات، الجوهرة، الألماس، الشعلة، الزاهي، القشيب، المزركش،

القبس، الجلوة، اللآلئ، الزهيرة، اللطيفة، الوضاءة، الشفافية، النورانية، شمّة النسيم، البحر، التجميل، الأزاهير، الحُسْن، نوى الحقائق، الروعة، الإبداع، الانسجام، الجمال، الإتقان، الكمال، الضياء، الألوان، الأصوات..." بديع الزمان سعيد النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استنبول 1992، مطبعة سوزلر للنشر، القهرة: ص133

3 كليات رسائل النور، الكلمات، تر: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، ط3 / 1999: ص 60 ــ 61.

4 اشارات الاعجاز في مظان الإيجاز: ص 154 ــ 155.

5 الكلمات: ص31 ــ 32.

6 نفسه: ص 33.

7 نفسه: ص 34.

8 نفسه: ص 35

9 نفسه: ص 350

10 نفسه: ص71

11نفسه: ص363

12 نفسه: ص 143

13 نفسه: ص 371

14 المثنوي العربي النوري: ص66

15 الكلمات: ص: 76

16 نفسه: 154

17 نفسه: ص698.

18 أديب الدباغ، مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1/1417هـ ــ 1997م: ص10.

19 الكلمات، ص 635 ــ 636.

20 أديب الدباغ، مطارحات في المعرفة الإيمانية عند النورسي: ص129.

21 كليات رسائل النور، اللمعات: ص183.

22 إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: ص 22

23 المكتوب الثامن والعشرون: ص 487

24 الكلمات: ص47.

25 الكلمات: ص6.

26 الكلمات : 27 ــ 28.